النظام العقدي
في الإسلام

النظام العَقَدي الأساسي

لن يستطيع أحد في هذا العالم إدراك عظمة الإسلام وأهميته في الوجود الإنساني إلا إذا أدرك نظمه الكبرى في الحياة العامة ومبانيها وغاياتها وأصولها ومنطلقاتها وحقائقها، بنظرة موضوعية مجردة، وبفهم عميق لتكامل حلقاتها وارتباط بعضها ببعض، وجدوى هذا الارتباط الجذري والشامل والضروري لكل إنسان واع، يحسّ بمسؤوليته الحيوية في أطوار عمره، وفي أثناء تقلّبه في معترك الحياة.

وأنظمة الإسلام الكبرى العامة في الحياة أربعة: هي النظام العقدي أو الاعتقادي، والنظام الاجتماعي، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي.

واقتصر هنا على بيان البنية الوجدانية المهيمنة على جميع المشاعر الإنسانية الأصلية، ألا وهي النظام العقدي القائم على ثوابت ثلاثة هي: الله، والكون، والإنسان.

فالله سبحانه أساس الوجود كله، فهو الأزلي القديم الخالق المبدع، المقدِّر والمهيمن، والمدبر، والرازق، والمحيي والمميت، والحكيم

المطلق في حكمته، والجميل والجليل، واللطيف والرحيم، والرب العلي، وكل ما عداه أثر لخلقه وتقديره، ودليل على وجوده وعظمته.

فإذا لم يؤمن الإنسان بهذا الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الخالد إلى الأبد، فإيمانه باطل وغير صحيح، ولا قيمة له. وهذا لا نجده في عقيدة المسلم المؤمن الذي يستمد إيمانه من القرآن الكريم، ومن مشاهداته في سجل الكون الأعظم، بل وفي ذاته أعظم بناء في الوجود، وكونه أداة إدراك ما حوله من الأرض والسماء، وتعدد أنواع الإنسان في هذا العالم، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢١-٢٣].

والله تعالى ذات كاملة، وليس مجرد قوة كما تُردد بعض الألسنة خطأ، لأن القوة يطرأ عليها أحوال من الاشتداد والارتخاء والضعف، كما يمكن أن تغيب هذه القوة، فتزول، أما الذات الإلهية فهي موجودة محسوسة، ومدركة، وقادرة، وكاملة، وخالقة، وخالدة مطلقاً، فلا تغيب لحظة، ولا تضعف، ولا تزول إلى الأبد، ولا يطرأ عليها الفناء على الدوام، وتتميز هذه الذات الإلهية أيضاً بالحياة الأبدية، والسمع، والبصر، والإرادة، والقدرة، والعلم، وهي كلها صفات أزلية حقيقية، ليس لها كالذات الإلهية مثيل، فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١].

والدليل القاطع على وجود الله الذي تميز به هو «الخَلْق» أي الإيجاد من العدم، فلا يستطيع أحد على الإطلاق خلق شيء مشتمل على جسد وروح، فالكل عاجز عن خلق شيء ولو ذبابة، والله وحده دون سواه هو القادر على الخلق والإبداع، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٧]، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٥]، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٢٠]، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩١].

وتحدى الله سبحانه جميع المخلوقات بأن يخلقوا شيئاً، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٣].

فالله سبحانه هو الموجود الأزلي المطلق، والمخلوقون فانون ميتون في نهاية أعمارهم، والله هو الإله الواحد المستحق وحده دون غيره العبودية والتعظيم، والخضوع والانقياد لأمره، وهذا معنى توحيد الألوهية، وهو أيضاً الرب المعبود، رب كل شيء، ومالكه ومربيه، ومدبر أموره وخالق كل شيء، وخالق العباد ورازقهم، والمحيي والمميت. وهو معنى توحيد الربوبية، وهو يستلزم توحيد الألوهية.

فكلا الوصفين معاً ثابتان لله عز وجل، ولا بد من الإيمان بهما معاً، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، خلافاً لعقيدة المشركين الذين يُقرّون بوجود الله، ولا يوحّدونه، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣١]، فهم يقرون بوجود الله الخالق المحيي المميت، مدبِّر الأمر كله، الرازق، المعلم آدم الأسماء كلها، ولكنهم يشركون مع الله إلهاً آخر قائلين عن الأصنام والأوثان: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣].

لكن هذه الآلهة المزعومة لا فائدة من عبادتها، ولا ضرر منها، فيظل المستحق للعبادة والعبودية هو الله جل جلاله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١/ ٥]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١١/ ١٢٣].

والإيمان بالله وحده لا شريك له يستتبع الإيمان بالوسائط الموصلة لوحي الله، وهي الإيمان بالملائكة والكتب الإلهية والرسل المرسلين لتبليغ الوحي الإلهي، كما يستتبع أيضاً الإيمان باليوم الآخر أو البعث والقيامة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة برج العدالة المطلقة، وتدمير الظلم، وعقاب الظالمين، وإثابة الطائعين بجنان الخلد، وتعذيب الكافرين في نيران جهنم، ويشمل كل ذلك ضرورة الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة.

فمن أنكر وجود الله، أو أشرك معه إلهاً آخر من بشر مثلاً اتخذه إلهاً، أو كوكب يعبده، أو صنم أو وثن يسجد له، فهو كافر غير مسلم، وكذلك كل من يسبّ أو يؤذي الله ورسوله أياً كان الرسول، أو ينكر فرضية ركن من أركان الإسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة، أو يُحل حراماً كالخمر وتبرُّج المرأة، أو يحرم حلالاً كأكل الطيبات، فهو أيضاً كافر غير مسلم، على عكس ما يردده بعض الضالين أن غير المسلم هو فقط من «لا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» حتى وإن لم يقرّ بفرضية العبادات التي هي ترجمان الإيمان بالله وهو خطأ، لأن الإيمان: «ما وَقَر في القلب وصدَّقه العمل».

والفرق بين الإيمان والكفر واضح، فالإيمان يغرس في النفس الطمأنينة والبشائر والراحة النفسية، ويحقق في الدنيا السعادة، ويرشد في الدنيا إلى الخير، ويعصم من الشر، ويجلب النفع، ويدفع الضرر، ويكون

سبباً للنجاة في الآخرة والظفر برضوان الله والجنة. وأما الكفر أو الشرك الذي هو وكر الخرافات والأباطيل، فيقترن به غالباً القلق والاضطراب النفسي فيكثر الانتحار من أهله، ولا سعادة فيه بحق وإن زيّن الشيطان للكافرين سعيهم وأعمالهم، ولا خير معه، بل الشر يلازمه، ولا يحقق لأتباعه نفعاً ولا يدفع ضراً، والهلاك فيه محقق في الآخرة، والعذاب فيه ملازم للكافرين في نار جهنم.

قال تعالى مبيناً جدوى الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٧-١٠٨].

وأما الشرك أو الكفر، فقال تعالى عن الأصنام المعبودة: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٢]، ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٥/ ٧٦]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٦].

وأما الكون فهو الصفحة الكبرى للوجود الإلهي، وفيه الشواهد الكثيرة الدالة على وجود الله ووحدانيته، ففي السماوات السبع المجرَّات وملايين الكواكب والنجوم، وكلها في أبدع نظام وأتم إحكام، لا يصطدم بعضها ببعض، وتؤدي مهام عظيمة لخير الإنسان في الليل والنهار، وتمتاز بالشمول والحركة والانتظام والاستقرار والإبداع، والعطاء المبارك بالمطر، وكذلك الأراضي السبع وما تكتنزه من خيرات جسام للإنسان، كالمعادن والنباتات والينابيع والمياه المختلفة المالحة والعذبة، وما في البحر من مئات الآلاف من الأسماك والحيوانات، واللؤلؤ والمرجان، وكون البحر وسيلة عبور السفن والنقل، والأرض مستقر الإنسان

ومحبوبه، وما فيها من آلاف وملايين الناس والحيوانات، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٢-٣]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٩٥/ ٤].

الخلاصة

لابد لكل نفس عاقلة واعية من توافر الإيمان الصلب فيها في جذور القلب، وثبات العقيدة على الدوام، واليقين والتصديق الجازم القاطع بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً رسول الله، وكذلك الإيمان بجميع رسل الله الكرام عليهم السلام، لإضاءة القلب بكل عناصر الخير، وللحاجة الماسة للإقرار بوجود الله ووحدانيته، والتصديق التام بأن القرآن الكريم هو وحي الله المنزّل على قلب النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، والذي لا تبديل فيه ولا تحريف، وهو المحفوظ على الدوام كما أنزل إلى يوم القيامة.

ورسالة الإسلام تتميز باعتمادها على خصائص ثلاث هي: الخاتمية، فلا دين ولا رسالة بعد رسالة القرآن، ولا نبي بعد نبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، والعالمية، فهي رسالة لجميع العالمين من إنس وجن، والخلود، فهي رسالة خالدة باقية دائمة إلى يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩]ويظل القرآن المجيد بإعجازه وإفحامه، وتحدي جميع الخلائق بالإتيان بمثل أقصر سورة منه دليلاً قاطعاً على صدق النبي عليه الصلاة والسلام في دعوته.

ولا عاصم للإنسان من الكفر والضلال إلا بالإيمان المطلق برسالة الإسلام مناط التكليف الإلهي، وأساس الحساب الفريد بمقتضاه بين

يدي الله عز وجل في الآخرة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٨٥].

obeikandl.com